تقديم

بقلم: توم كلانسي

التقيت طوني زيني لأول مرة منذ بضع سنوات في كوانتيكور بولاية فيرجينيا، مكان التقاء القوات البحرية الأمريكية الشهير.

حصل زيني على ثقافة رفيعة، إذ تلقى علومه في جامعة فيلانوفا، وجاب العالم أكثر من مرة بوصفه جنرالاً بحرياً، ولقد عرفت عدداً كبيراً من الضباط العاملين برتبة الجنرال، فكانوا جميعاً دارسين نجباء للنشاط الإنساني والتاريخ الإنساني، وهو المجال الذي أوليه اهتماماً خاصاً، وكان الحديث مع أي منهم يشبه ما يحدث في حلقات البحث للدراسات العليا في مادة التاريخ في جامعة هارفارد أو جامعة أوكسفورد، (وقد ألقيت كلمة هناك مرة). فإذا سألت رجلاً منهم عن سبب أداء الجيش عملاً ما بطريقة معينة، فإنك تستمع لمحاضرة مدتها عشرون دقيقة يعود بك فيها إلى كايوس يوليوس قيصر أو ربما إلى الإسكندر المقدوني حتى يصل إلى حرب فيتنام، مروراً بمعارك أجينور ونورماندي والبولغ، لتعرف بعدها أن «ذلك» كان سبب أداء القوات البحرية أو الجيش هذا العمل بتلك الطريقة، وتتسم هذه المحاضرات دائماً بالإيجاز والمنطقية والوضوح.

والجنرال زيني رجل ذو خلفية تعليمية رفيعة حصّلها من الكتب، ثم تعلم كيف يطبق في غابات فيتنام ما تعلمه في غرب فلاديلفيا من دروس، ثم قام بتطبيقه فيما بعد في كل مكان ذهب إليه على وجه الأرض سواء كان مكاناً مشهوراً أو غير مشهور، وخلال دراسته العليا تعلم زيني دروساً خالدة عن السلوك البشري.

ليست كل الثقافات متماثلة، وتمثل أمريكا بالذات «حالة خاصة» وسط كل النشاط البشري، والحرب دائمًا حالة من حالات السلوك الإنساني، الذي هو نتاج الثقافة والتاريخ، المدوّن منهما وغير المدوّن على حد سواء، لكن في هذا الكتاب يقدم طوني نوعاً من الكتابة يتيح للقارئ أن ينظر إلى العالم بطريقة جديدة مفعمة بالحيوية، وأن يرى العالم بعين محارب محترف.

ويختلف المقاتل عنّا جميعاً، فالعالم بالنسبة لي ولمن هم مثلي هو المكان الذي ندير فيه الأعمال ونجني الأرباح، أما طوني فهمه الأول هو التعامل مع تعقيدات الحياة وتجاوزها في ظروف ليست أفضل أو أسوأ مما نشأنا فيها نحن الأمريكيين لكنها تختلف عنها في نواحٍ عديدة، بل وفي بعض الحالات تختلف عنها تماماً، ولابد لنا أن نتعلم كيف نتعامل في مجال الأعمال مع الشعوب الأخرى، وأن نتعلم منهم ونعلمهم أيضاً كيف يعيشون في عالم تحدده القيم والأساليب الأمريكية بصفة أساسية، وهي قيم وأساليب ينبغي على العالم احترامها لا أن يتشكك فيها وتثير ريبته.

في مجال الأدب نتحدث كثيراً عن ثنائية الإدراك والواقع، لكن في عالم الواقع غالباً ما يصبح الإدراك واقعاً، ويختلف الاعتقاد عن الأمر الواقع، لكن الاعتقاد هو ما يحدد كيفية إدراك الناس للواقع. فالإنسان منذ مئة عام لم يكن ليعرف ما هي الطائرة المروحية حتى لو هبطت إحداها في فناء منزله، أما اليوم فالحقيقة لدى بعض الناس هي منظومة عقائدية قائمة على تعاليم النبي محمد ﷺ وفي واقع الأمر، لا تختلف هذه المنظومة من المعتقدات عن التعاليم اليهودية أو المسيحية، في صورتها المدونة على الأقل، لكن العوامل الثقافية وغيرها من العوامل قد تجعل الأمر يبدو وكأن المسلمين هم أعداء أمتنا، في حين أنه لا يوجد ما يدعو لذلك مطلقاً حسب ما لدينا من حقائق مدوّنة.

إن ما قدمه لنا طوني في هذا الكتاب، الواضح والمدروس إلى درجة تثير الإعجاب، هو تجميع لرحلة رجل فذ حول العالم، وكان طوال رحلته هذه يرتدي زي أعلى أفرع قواتنا المسلحة شأناً، وطوني زيني ضابط بحري حتى النخاع، وقد مازحته يوماً قائلاً إنه حين يجرح نفسه عند حلاقة ذقنه ينزف دماً أخضر، فكانت إجابته: «كلا إنه تمويه».

لكن طوني أيضاً أمريكي قلباً وقالباً في نظرته للأمور، فهو يبحث دائماً عن الحقائق، وإجابات لأسئلة تعلّم أن يسألها مقدماً، وعندما يصل المقاتل إلى رتبة الجنرال فإنه يصبح دبلوماسياً؛ إذ يتعامل مع مواطني دول أخرى يتدرجون من أولى درجات الجندية حتى رؤساء الدول، لكلٍّ منهم آراء مختلفة حسب السياق والمجال، ولابد للضابط الكبير أن يتمتع بالقدرة على التحدث مع هؤلاء والتعلم منهم

وإقناعهم، لا من أجل تحقيق الأهداف القومية الأمريكية فحسب؛ بل أيضاً فيما يتعلق بما يمكن أن يحقق السلام والعدل في ذلك الجزء من العالم.

وكان طوني يتمتع بما سماه جون بول جونز ذات يومٍ «أدق إحساس بالشرف الشخصي». فإن لكلمة «النزاهة» معنىً خاصاً يكاد يكون معنىً روحياً، عند القوات البحرية، ونتيجة لذلك، قام طوني بتدريس علم الأخلاق في المستوى الجامعي ـ وكنت دائماً أتساءل عن شعور من يجلس للاستماع إلى هذه المحاضرات، وفي كل مكان في العالم تجد أن الصدق يلقى احترام جميع الناس، وليس لديّ شك في أن الجنرال زيني كان دبلوماسياً مؤثراً حين كان يرتدي زي البحرية بأناقة وحسن هندام.

إن هذا الكتاب لابد أن يقرر على كل من يسعى لخدمة مصالح بلادنا القومية فإذا لم يتفق الجميع على كل ما ورد هنا، فإن الرسالة الضمنية هي أن تبقي عينيك وأذنيك مفتوحتين وتضع أهدافنا القومية نصب عينيك دائماً، وفوق هذا وذاك أن تكون مخلصاً لمبادئنا. فالمرء يرقص مع من دعاه إلى الحفل! إن طوني رجل وطني بحق، يفهم المبادئ التي قامت عليها بلادنا، وهو نجل مهاجر إيطالي خدم بلاده في الحرب العالمية الأولى، إلى أن صار ضابط صفٍ، وكنت أتمنى لو قابلته. لم تكن الحرب العالمية الأولى نزهة لأي فردٍ، لكن زيني أدى عمله باجتهاد ثم علّم أطفاله كيف يؤدون عملهم على نحو صحيح، كانت هذه الخلفية هي التي أسست شخصية طوني، وقد خدمت تلك الخلفية صديقي هذا بحق.

توم كلانسي

2006 - 1 - 12